تجديد الخطاب الديني[1]

تقديم

لقد شهدت الساحة الإسلامية العلمية والفكرية بعد أحداث ١١سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م مؤتمرات كثيرة حول الوسطية، حضرتُ منها أربعة عشر مؤتمراً، في السعودية والأردن والكويت وقطر وغيرها، كلها بأسماء مباشرة أو غير مباشرة لدراسة مفهوم (الوسطية وآفاقها في الإسلام) وأنشئ مركزان دائمان لذلك:

الأول- منتدى الوسطية للفكر والثقافة في عمَّان - الأردن عام ٢٠٠٥م حيث عقد فيه ثلاثة مؤتمرات دولية فأكثر.

الثاني- المركز العالمي للوسطية في الكويت عام ٢٠٠٧م ارتباط بالأصل واتصال بالعصر.

وذلك من أجل بيان معالم هدي الإسلام في التزام منهج الاعتدال والتوسط في معالجة الأحداث الكبرى في العالم، والجنوح إلى توطيد منهج السلم والاستقرار، ونبذ التطرف والغلو والإرهاب، وتبيُّن معالم الوسطية في شرائع الإسلام وأحكامه، وفي الخطاب الديني الموجّه إلى الآخرين من أجل نشر رسالة الإسلام في العالم، ولتصحيح بعض المفاهيم المشوَّهة عن الإسلام، ومنها تهمة الإرهاب الباطلة في المفهوم الدعوي الإسلامي، وإعلان البراءة من تصرفات بعض المتورطين في أعمال الإرهاب، وإصدار القرارات المجمعية والعلمية والفكرية التي تشجب سلوكيات الإرهاب، وما يؤدي إليه من دمار

---

(١) بحث مقدم لمؤتمر مائدة (الإسلام والخطاب العصري) مجلس الثقافة العام - الجماهيرية الليبية ٢٢-٢٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

وخراب، وتقتيل الأنفس البريئة، وإحداث الذعر والخوف وهزّ الأوساط، سواء في العالم كله، أم في دول العروبة والإسلام.

وهذا إسهام واضح لمؤازرة جهود الدعاة في الإرهاب وتصفية جذوره، ومحاولة القضاء على بؤره وخلاياه، وأنشطته السرية والعلنية، في ضوء المطالب الآتية:

المطلب الأول- مفهوم الوسطية وغاياتها في الإسلام

الوسطية تعني التزام منهج الاعتدال والتسامح والانفتاح على الآخرين، بروح سامية، وإدراك معاصر، ونشاط حيوي معتدل، نابع من توجيهات القرآن الكريم، لا أثر فيه للتشدد والغلو، والتعنت والتعصب، سواء على الصعيد السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي العام، والإعلامي، والثقافي والتربوي، أو على المستوى الفردي والممارسة الشخصية.

وهذا يدلنا على ضرورة أن يبدأ المسلمون بأنفسهم أولاً من التزام منهج الحق والعدل، والرحمة، وحسن الظن بالآخرين، دون اقتراف أي ظلم وتسلط، أو ممارسة عنصرية أو طائفية أو مذهبية أو عصبية، أو تكفيرية، أو تخوينية (اتهام بالخيانة السريعة الحكم) لأي فئة أخرى أو دولة أو شعب، أو تشكيك بمنهج الآخرين من غير حجة ولا برهان، ولا محاولة لنسف الدساتير، وتخطي المعايير، ومحاربة اتجاه الدين، أو تشويه الأعمال المشرفة لمقاومة المحتل، سواء من المسلمين أم من غيرهم على مستوى القيادة والشعب، أو الأفراد والمنظمات الخاصة.

فليست الوسطية مقصورة على المسلمين وحدهم، وإنما هي عامة تمنع عبث المستكبرين والغربيين أو الشرقيين بقضايا الإسلام والمسلمين وغيرهم، والعمل على تجزئة بلادهم وتقطيع أوصال دولتهم، واحتلال أوطانهم، فإن العصر الحاضر خير شاهد على قبح أو سوء المآسي والجراح التي نشاهدها في فلسطين والعراق وأفغانستان وكوسفو والبوسنة والهرسك وغيرها، وستظل هذه الأوضاع

الشائنة دليلاً قاطعاً على أن أيدي حكام الغرب والصهاينة ملطخة بالدماء العزيزة التي تراق من نفوس المسلمين، والجديد أنهم يستعينون ببعض القادة المسلمين أو الأتباع المتعصبين لتنفيذ مخططاتهم، كما نشاهد اليوم في العراق ولبنان وفلسطين.

وحينئذ يتجه السؤال التالي: أليست الوسطية مفهوماً مشتركاً لكل العالم، أو أنها لحماية مصالح المستكبرين، وترك المستضعفين يعانون من مرارة الألم والحرمان، وسفك الدماء، والطرد والتشريد، واستمرار العدوان، ونهب الثروات والآثار من المتاحف وغيرها، ومعاملة المسلمين بكل ألوان الوحشية والعدوان والدمار؟!

الوسطية ليست لمصلحة فئة دون فئة، ولا لأمة دون أمة، أو شعب دون شعب، إن الوسطية دعوة للسلم الفعال، والأمن، والاستقرار في كل البلاد وجميع سكان العالم، وليست هي دعوة للاستسلام والعبودية أمام سادة معينين، دون ممارسة حق المقاومة لكل محتل، سواء أكان احتلالاً إقليمياً عنصرياً كإسرائيل في فلسطين، أم دولياً كأمريكة وحلفائها الغربيين.

الوسطية اعتراف متبادل بالآخرين، فعلى كل فئة أو جماعة أو دولة كبيرة أو صغيرة، قوية أو ضعيفة الاعتراف بحق الآخرين في العيش الحر الكريم، ومعاملة جميع الشعوب والأمم بميزان واحد، لا بميزانين أو مكيالين كما تعامل أمريكة وحلفاؤها في الحقيقة، ولا سيما في مجلس الأمن، العربَ والمسلمين في كل مكان بدوافع تعصبية وعنصرية، بقلوب مليئة بالحقد والكراهية وتشويه الحقائق، وهو تعامل ناشئ من تحالف المسيحية المتصهينة مع الصهيونية العالمية وحماتها.

وإذا كان أغلب الغربيين قد اختار طريق الديمقراطية، فإنهم في العالم العربي هم الذين أجهضوها، ليسهل التعامل بينهم وبين نظام الفرد، وبخاصة إذا كان حصاد الديمقراطية له صبغة إسلامية، كما حصل في الجزائر، ويحصل الآن مع منظمة حماس في فلسطين.

إن الوسطية نظام يدعو إلى التسامح والحوار، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] وليس من الوسطية التسرع في تكفير الآخرين، أو سبُّهم وإيذاؤهم مواجهةً، أو إعلان عداوتهم لأول وهلة، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ[1] فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨/٦]؛ أي كيلا يسبوا الإله الحق ظلماً وعدواناً من غير حجة ولا برهان ومعرفة صحيحة.

وهذا يستدعي كون الوسطية دعوة للمصداقية وزرع الثقة وتنمية العلاقات الأخوية البشرية، وتقوية النزعة الإنسانية الصرفة التي تنأى عن الغلو والتطرف والتسبب في التدمير والتخريب والتخويف، فليس للمسلم أن يروِّع أخاه في الإنسانية.

والوسطية - خلافاً لما يقول بعضهم - ليست مفهوماً غامضاً ولا عائماً، وإنما هي مفهوم واضح يعتمد على معيار الحق والعدل، وصون الكرامة الإنسانية، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠] هذه الكرامة حق طبيعي لكل إنسان، أياً كان دينه أو مذهبه أو أصله أو انتماؤه أو جنسيته، لأن الإنسان مخلوق الله وصبغته، كما ورد في القرآن المجيد: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨/٢].

الوسطية دعوة للمحبة والأُلفة والتعاون، والإخاء الإنساني، وتوطيد دعائم السلم والأمن الدوليين والمحليين، حتى يعيش الناس في وئام واستقرار، ويتفرغوا لعمران الكون وتقدم الحضارة وتبادل المنافع وتكافل أبناء المجتمع الإنساني، وبناء صرح العائلة الدولية الواحدة، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

ولكن مع الاعتراف للشعوب المظلومة أو المحتلة بحق المقاومة المشروع،

---

(١) أي عبدة الأصنام.

كمقاومة اعتداءات (إسرائيل) المتكررة، وأمريكة وحلفائها، فهو حق طبيعي تقره شرعة الأمم المتحدة، وليس (إرهاباً) كما تزعم دول الاستكبار العالمي.

فالإسلام لا يقر ما يسمى بالتطرف أو العنف أو الإرهاب، وهو الاعتداء المحض دون مسوِّغ مشروع.

وواضح بداهة الفرق بين العدوان المحض والدفاع عن الأوطان، فالدفاع حق مشروع، والاعتداء ظلم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

ومن الواضح أيضاً أن معايير الحق والعدل والشورى والمساواة والحرية واحترام الأنظمة والمبادئ والقيم، هي مرجع المتنازعين، وحينئذ ليست الوسطية كما يتبادر لأذهان بعض الناس أنها التوسط بين الخير والشر، أو بين العدل والظلم، أو بين الإيمان والضلال، أو بين شرائع الإسلام ومطالب الأعداء وأنظمتهم الجائرة، فهذا كله عبث، وفهم باطل، وتشويه للحقائق الخالدة.

إن الوسطية كما قدّمت تعني الاعتدال في الرؤى والمواقف، والتزام الحكمة بوضع كل شيء في موضعه الصحيح، ورعاية المصالح العليا أو العامة غير المتصادمة مع شرعة الحق والعدل. وهذه هي حقيقة الإسلام خاتم الرسالات الإلهية من غير إفراط ولا تفريط، ولا إعنات أو إحراج، ولا تشدد أو شطط، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٨].

المطلب الثاني- مباني اليسر والاعتدال ومظاهرهما في شرائع الإسلام وعمل المسلمين العدول

الشريعة الإسلامية في مبناها ومظهرها وحقيقتها وأحكامها في العبادة والمعاملة والأخلاق هي شريعة اليسر والتسامح، والاعتدال، ودفع الحرج

والمشقة في التكاليف الشرعية، لا فرق بين أحكام العبادات والتصرفات المدنية وتشريع العقوبات والأقضية والأحكام من طهارات وأطعمة وأشربة وغيرها، لآيات كثيرة إجمالية وتفصيلية[١]، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٨]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨].

وعُرفت الشريعة الإسلامية بأنها دين الحنيفية السمحة، وأن الإسلام دين سمح حضاري، النفوس تألفها، والطباع تنسجم معها، وتتجاوب مع أحوال الإنسان وتصرفاته وأعماله، فلا تصطدم معها، ولا تؤدي إلى النفور منها، أو العجز عن أدائها، أو العسر والضيق في التكيف معها.

إن عنصر الإيمان (أو العقيدة) في الإسلام سهل بسيط غير معقد، يعتمد على مبدأ التوحيد والإقرار برسالة خاتم النبيين بقول الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو توحيد يهدم الشرك ومبدأ التثليث المعقد، والذي يحاول فيه النصارى قلب التثليث إلى توحيد وجعل الإله هو عيسى عليه السلام.

وساحة العبادات بالذات تنصف بالاقتصاد في الطاعة، والاعتدال في القربة إلى الله تعالى. ومجال الأعمال والمعاملات قائم على تحقيق العدالة وتجنب الظلم والتوسط في الأمور والتعادل في التبادل، والعلاقات الدولية المحلية والخارجية تقوم على مبدأ صون الدماء والأعراض والأموال والعقول والكفاءات والقيم الخيِّرة. وأحكام الأسرة المسلمة تعتمد على تمتين العلاقات الأسرية، وتوثيق الصلة بين الآباء والأولاد والقرابات، دون تقصير ولا شطط، ولا إرهاق أو ظلم، ولا بغي أو تفريط في حق من حقوق الله تعالى، للحفاظ على رسالة الأسرة وشرفها، وتمكينها من النمو والتكاثر، والإسهام في الحياة العامة، وتقديم الروافد الصالحة والكفؤة للأمة والمجتمع.

هذه الألوان والمظاهر والحقائق في شريعة الإسلام، تتلخص كما قال ابن

(١) نظرية الضرورة الشرعية للباحث: ص٣٧-٤٧.

قيم الجوزية: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها وحكمة كلها..»(١).

وقال الإمام الغزالي في فلسفة التوحيد: يخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متّبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣].

وكان المسلمون وما يزالون عدولاً وسطيين في القضايا العامة والخاصة على مدى التاريخ الإسلامي، بدءاً من العهد النبوي وإلى عصرنا الحاضر، في قرون زاهية على مدى خمسة عشر قرناً، لم يعرف عنهم في أغلب الأحوال - ولا سيما مع غير المسلمين - إلا الرحمة والتعاون والإنصاف في المعاملة والعدل في القضاء والأحكام، واحترام العهود والمواثيق، والإسهام في تقدم الحضارة والعلوم والفنون والثقافة.

ولا عيب فيهم سوى أنهم تخلفوا عن ركب الحضارة الحديثة بسبب تآمر الدول الغربية والشرقية عليهم، وتجزئة بلادهم ونهب ثرواتهم، وزرع دولة الصهاينة في قلب الأمة العربية والإسلامية، وإنهاء الخلافة الإسلامية وغير ذلك من الكوارث والمخططات المعلنة والسرية.

المطلب الثالث- إعجاز القرآن البياني المتعلق بالوسطية

تنوعت ألوان الإعجاز في القرآن الكريم لإثبات كونه كلام الله عز وجل، والذي يهمنا هنا إعجازه البياني بحسب الموضوع الذي يريد الله سبحانه تقريره، فكانت لغة القرآن وأسلوبه في غاية الجاذبية والتأثير على العقول والقلوب، حتى خرست ألسنة أساطين الفصاحة والبلاغة عن محاكاته أو مجاراته(٢). وكان الأسلوب في التشريع المكي لإصلاح العقيدة كالأمواج الهادرة، يقرع المسامع،

(١) أعلام الموقعين: ٣/ ١٤ تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢/ ٢٢٨ وما بعدها.

ويهزّ النفوس، ويلفت الأنظار، ويخاطب العقول الواعية والنفوس الكريمة، لبناء قاعدة الإيمان الصلب.

أما في التشريع المدني فكان الخطاب هادئاً حيث شرعت الأحكام التفصيلية في شؤون الفرد والجماعة في العبادات والمعاملات والجهاد والجنايات والمواريث والوصايا والزواج والطلاق والأيمان والقضاء وغير ذلك من أنظمة الشريعة(١).

وأما أسلوب القصة القرآنية فهو يعتمد أولاً على بيان الأسباب ثم يتبعه بالنتائج، وهو بيان يشتمل على الوخز والتقريع والتخويف من العذاب الأخروي أو الدنيوي بنحو تكاد تشيب منه الولدان، وتحسب له النفوس المتعلقة ألف حساب.

هذا اللون من الإعجاز القرآني له تأثيره في الوسطية حيث يستفيد منه الداعية في تبليغ دعوة الإسلام وفي خطاب الآخرين، ويتعلم منه كيفية الحوار وأسلوب الجدال والحجاج، والاعتماد على الأدلة والبراهين الحية والمنطقية والمُقْنعة، مستعملاً كل بيان في مقامه المناسب ووضعه الصحيح مثل أدلة إبراهيم الخليل عليه السلام على قومه لإثبات مبدأ توحيد الله تعالى، كما في سورة الأنعام [٧٤-٨١].

المطلب الرابع - تعدد ألوان الخطاب الديني في القرآن الكريم (الأسلوب والغايات)

تعددت ألوان الخطاب الديني في القرآن المجيد بحسب المناسبات والظروف والأحوال، واختلف الأسلوب اختلافاً واضحاً بحيث يكون هناك انسجام بين الأسلوب والغاية المقصودة، وسيتبين لنا من اختلاف أساليب الخطاب في القرآن الكريم ضرورة مراعاة منهج الوسطية والاعتدال، حتى تتحقق الغاية من أقرب الطرق، ويظل المنطلق من الخطاب الإلهي هو تحقيق مصلحة الإنسان

(١) تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ محمد علي السايس: ص١٢-١٣.

ورعاية أحواله والعناية به، انطلاقاً من مبدأ اللطف الإلهي، فمن أسمائه تعالى اللطيف، ونلمس ظاهرة اللطف الإلهي في القرآن من أجل غرس قاعدة الحب لله تعالى في أصائل القلوب وأعماق النفس والحرص على هداية الإنسان للإيمان السوي، وإصلاح فساد القلوب والسلوكيات، والتعلُّق بمنهج الرشاد والسداد والصواب.

١- الخطاب الديني في مجال العقيدة والعبادة

في جوهرية التوحيد أو العقيدة تتكرر الأدلة والبراهين من خلال مناقشة المشركين الوثنيين وغيرهم مراراً وتكراراً في سور القرآن، أو مجادلة المتألهين الذين يدّعون الألوهية كفرعون وأمثاله من فراعنة حكام هذا العصر، مثل الرئيس بوش الأمريكي، أو كشف حقيقة المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والإلحاد.

فبرهان الاعتقاد بوجود الله سبحانه هو بيان القدرة على الخلق والإبداع والإيجاد فقط، ولم يذكر القرآن برهاناً آخر سواه، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٧]. وطريق الخلق هو نفخ الروح في الأشياء كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

ومن أمثلته نفخ الروح الإلهية العملية في البشر والتكوين الإلهي المحض، مما قد يساء فهمه وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٩].

وعمّم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في حاشيته على العقائد العضدية إيراد الأدلة والبراهين على إثبات الإله الصانع وإثبات النبوات، فقال: «والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم به من دون فحص فيما تكنّه

الألفاظ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة. ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة، كان ما أدت إليه ما كان، لكن بغاية التحري والاجتهاد.

ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه، فوجده بظاهره ملائماً لما حققه، فليحمد الله على ذلك، وإلا فليعرض عن التأويل، ويقول: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٣/ ٧] فإنه لا يعلم مرادَ لله ونبيه إلا الله ونبيه. على هذا المنوال يكون نسجه، فيبوء من الله برضوان، حيث أسس عقائده على السديد من البراهين، واستقبل الأخبار الإلهية بالقبول والتسليم وتناولها بقلب سليم».

هذا نمط أساسي لتفعيل منهج الوسيطة في الخطاب الديني الإسلامي، وهو الاعتماد على البرهان العقلي والحسي لإثبات العقيدة، بحيث لا يستطيع أحد التفلت من الإقناع والاقتناع إلا أن يكون الشخص مكابراً أو متحدياً أو معانداً، وهو منهج سديد لا يختلف فيه اثنان.

ولا يثير الخطاب العقدي على هذا النحو أي إشكال، إلا في أحوال فيوصف الذين اشتطوا في ضلالهم بالكفر مثل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤] ومثل وصف اليهود بسبب تحريف كلام الله واستهزائهم بنبي الله، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ٤٦] ووصف بعض كبار عصاة المؤمنين بالظلم وتهديدهم بعذاب النار مع الخلود لتجاوزهم نظام الميراث، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ٤/ ١٤]، وتوصيف عتاة الكافرين أو المشركين بصفة (الظالمين) في آية: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤]، وتهديدهم باللعنة والطرد من رحمة الله في آية: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١١/ ١٨]، أو بيان بعض أحوال العذاب الأخروي لمن مات معانداً مصراً على الكفر في آية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٦].

وقد يكون الخطاب بالكفر في حال بيان الموقف الحاسم بين فريق المؤمنين وغير المؤمنين مثل سورة [الكافرون: ١-٦] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ والذي لا أمل في العدول عنه.

ومع ذلك لا داعي لمجابهة غير المؤمنين بهذه النصوص الدينية لأول وهلة، إلا عند اليأس منهم، وصيرورتهم في أشد حالات المعارضة ومجابهة جبهة أهل الإيمان، ومحاولة العدوان، وتأزّم العلاقات، وإصرارهم على محاربة المسلمين كما نشاهد اليوم.

وفي الدعوة لعبادة الله يخاطب الله تعالى العواطف ويذكِّر عباده بالنعم الكثيرة عليهم وبضرورة تقدير نعمة الخَلْق، فيقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ إنها دعوة رفيقة لطيفة لممارسة العبادة من جميع الناس وفاءً بنعمة الخلق الإلهي، وتصحيحاً لمسيرة السلوك بالتزام تقوى الله (التزام الأوامر واجتناب النواهي).

والخلاصة: أن الخطاب القرآني في مجال العقيدة والعبادة يتميز باللطف الإلهي، وبيان كون العقيدة في الله بيضاء نقية، منزّهة عن جميع النقائص وعلى استحالة وجود الولد والوالد، وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق، ووصف الله بالكمال المطلق، وإعلان الوحدانية المطلقة، وحدانية الربوبية ووحدانية الألوهية.

ولقد ضلَّ اليهود بعد موسى عليه السلام، فعبدوا العجل وألّهوا المادة، وجعلوا العبادة مجرد طقوس وشكليات خالية عن المعاني الروحية السامية، وضلّ النصارى بعد عيسى عليه السلام، فذهبوا إلى عقيدة التثليث، وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهياكل الوثنية الأولى، ومنحوا رجال الكهنوت ما هو حق لله وحده في التشريع والتحليل والتحريم[1].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

وشوَّه كثيرون أصول العبادة وانحلوا من ممارستها مع أنها طريق تكوِّن الشخصية القويمة.

٢- الخطاب الديني في نطاق بيان الشريعة والأحكام

الخطاب الديني الإسلامي هو مجموعة القواعد والأصول الشاملة للثوابت والمتغيرات، والتجديد في الإسلام هو المنهج المحقق لغاية المجتمع من خلال المرجعية الإسلامية، إما من خلال مواكبة العصر، أو تغليب النزعة المعاصرة على القديم التراثي، أو ملاحظة مفهوم التقدم والتأكيد عليه.

لا نرى في الخطاب القرآني التشريعي أي تشدد أو تحجر أو إحراج وتنطُّع أو تنفير، وإنما يتّسم بيان القرآن في ذلك بغاية اللطف الإلهي والترغيب والتشويق، سواء في الدعوة لأداء العبادات المفروضة من صلاة وزكاة مثل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣] وصيام رمضان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٣] وأداء الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

أو سواء في بيان أصول التشريع العامة، مثل الوصايا العشر في هذه اللوحة الخالدة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١-١٥٣].

فهل بعد هذا الأسلوب أدق وأقوم وأجدى للإنسان المتعقل لا المتهور لتحقيق مصلحته؟! وهل نحتاج إلى القول بتغيير الخطاب الديني في هذا المجال؟ أليس هذا الأسلوب أرفع وأسمى من صيغ القوانين الوضعية التي تكتفي بالوصف والتعداد والأحكام دون ترغيب أو ترهيب، أو ربط بتحقيق الغايات وتقويم السلوكيات؟!

٣- منهج القرآن في إحقاق الحق وإقامة العدل ونبذ ظاهرة الغلو والتطرف

تميَّز منهج القرآن الكريم في تقرير حقيقة البنية التشريعية وبيان الإيجابيات والسلبيات بأنه يبني الشريعة كلها للفرد والجماعة تحت مظلة قويمة وراسخة وأساسية وواقية، ألا وهي مظلة إحقاق الحق وإبطال الباطل، والتزام أصول العدل الذي يحقق الدوام والاستقرار، والطمأنينة وراحة النفس الإنسانية، ومن ثم وقاية الإنسان والمجتمع والمؤسسات والدولة وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان من كل مثارات القلق والاضطراب، والتفكير بالتمرد والطغيان، واللجوء إلى التورّط في العنف والغليان، والغلو والتطرف، لشعور الإنسان بظلم الحكام وجور السياسة والتسلط وتحكم فئة قليلة في مصائر الكثرة الغالبة، ونجد ما يحقق هذه المقاصد في نصوص القرآن المجيد، لحماية الأمة من جميع مظاهر الضعف أو الثورة، أو التمرد، والإحساس بالظلم الاجتماعي، أو الانقسام الطبقي أو احتكار السلطة والثروة وحرمان الضعفاء منها، فقال الله تعالى في شأن إعلاء منارة الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٦١/ ٩].

وأعلن القرآن الكريم، حين انتصار الإسلام والمسلمين في فتح مكة المكرمة عاصمة العالم كله، بأن دعوته هي دعوة الحق وإزهاق الباطل على الدوام والكمال، فقال الله عز وجل: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

وأما الالتزام بقاعدة العدل والإنصاف والميزان بين جميع الناس، سواء

أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فواضح في آيات قرآنية لا يرقى إليها أي خطاب أو دستور آخر، منها قول الله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨]٨.

- ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧].

والهدف الكلي من رسالات الأنبياء قاطبة تحقيق القسط (أي العدل) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

ولقد شهد تاريخ المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين أسمى مثال لتطبيق منهج العدل العام، لأن استقرار الأوضاع يكون حين يسود الحق والعدل، ويعم الخير والرفاه جميع الناس، فتصفو النفوس، ولا تنشب نزاعات أو تثور صراعات، أو تتّقد نيران، أو يظهر غلو وتطرف، أو يبدأ إحساس بالظلم، أو تعمل خلايا الإرهاب على الهدم والتدمير.

إن قيمة العدل الكبرى خالدة، ولا حاجة للمساومة على قاعدة العدل، أو محاولة المساس بنظام العدل، وشريعة الحق، أو تعديل الخطاب الأبدي في إعلاء شأنه.

---

(١) بغض وكراهية.

٤- صيانة رسالة الأخلاق والقيم العليا

لا حياة للأمم والشعوب والأفراد بغير الأخلاق القويمة والالتزام بالقيم العليا من المحبة، والتعاون والتراحم، والعفو، ورعاية الفضيلة ومقاومة الرذيلة، والصدق، والإخلاص، وإشاعة الثقة، والتراحم، وحسن الظن، والإحساس بالإخاء والوئام، والحلم والصبر، وحب الخير، وعلو الهمة، والمروءة، والحفاظ على الطهر والعفاف، وسلوك طريق الاستقامة في جميع الآداب والأعمال، وتنوير البصيرة في الأخذ والعطاء، والالتفات إلى ما في القرآن الكريم من قيم الحق والخير والعدل والجمال، والإحسان إلى الآخرين، والإقبال على مواساة المحتاجين والضعفاء وكبار السن والصغار، وإنصاف المرأة دون إلحاق أي جور بها، وحب العلم والمعرفة والثقافة التي تنير للأمة طريق البناء والحضارة والتقدم، وإيثار الفضيلة، ومقاومة الفساد والرذيلة.

ومن المعلوم أنه لم يصفِ الله نبيه بصفة أعلى وأسمى من أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

وجِمَاع(١) أصول الأخلاق في ثلاث خصال، وهي التي اتصف بها نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩/٧]. إن الخلق الكريم وَسِع الدنيا والآخرة، فمن كان على خلق واستقامة فهو في أعلى غرف الجنان. وصاحب الخلق الرفيع هو الحكيم السامي، وهو المؤمن المتوسط، لأن الوسطية والاعتدال أساسها التسامح، وسمو الحب، واحترام الآخرين، وتقديم العون لهم، وقضاء حوائجهم. ومن

---

(١) يقال: جِماع الشيء: جَمْعه يقال مثلاً: الخمر جِمَاع الإثم.

تخلَّق بأخلاق الإسلام حقق رضوان الله، واستنار قلبه بحب الناس جميعاً، وكان قدوة حسنة لكل إنسان، وكان سلوكه القويم أصدق دعوة لدين الله وشرعه، وإنارة الطريق لمحبة الدخول فيه.

والخطاب الديني ينطلق أساساً من الأخلاق الكريمة والقيم العليا التي تحمل كل المعاني الإنسانية الفاضلة، فيحب الناس كل مؤمن، ويحب هو غيره، ويحقق النجاح والسعادة والطمأنينة لنفسه ولغيره. ومن كان ذا خُلُق كان على هدى وبِرّ أو خير، لاستيعاب الآخرين بحلمه وعطفه ولطفه وكياسته، وكان منارة للإسلام في قبول هديه ورشده وعقيدته، وكان بسلوكه الطيب هو المؤمن الصادق، وما أوقع في النفس ما عبّر عنه القرآن الكريم حين وصف تأثير الكلمة الطيبة على الآخرين في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤-٢٥].

والحاصل: إن احتضان الإسلام لرسالة الأخلاق الكاملة، والأعمال الفاضلة، والقيم العليا، كان من أهم مقومات الإسلام وخلوده وانتشار دعوته السامية القائمة على الحق والإحسان في أنحاء العالم كله.

وحينئذ يكون الخطاب الديني القديم والحديث، والماضي والمعاصر، والواقع والمستقبل سواءً، لا يحتاج لتجديد ولا تبديل، لأن أصول هذا الخطاب قويمة ومنطقية وسوية، وصادرة من الله العلي الحكيم. كل ما نحتاج إليه أن نرقى لمستوى الإسلام الصحيح، ووعي قيمه ومبادئه والتخلق بأخلاقه الفاضلة.

٥- سياسة الإصلاح الرشيدة ومنهج الدعوة الأقوم في القرآن المجيد

إن دعوة الإسلام دعوة إصلاح كبرى، وحملة واسعة لتطهير المجتمع من كل ألوان الفساد والانحراف، والفوضى، والوثنية والشرك، وغرس العقيدة الإيمانية الصحيحة بالله عز وجل وبرسله وكتبه واليوم الآخر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا

تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥].

ومهمة القرآن في هذا التوجه واضحة وأصيلة ورصينة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩-١٠].

ولقد انتهج القرآن طرقاً عديدة في الإصلاح، وسلك سياسة حكيمة في هداية البشر، مما أدى إلى نجاح منهج الإصلاح بكل ما يحتاج إليه الناس، ولا يحتاج الخطاب الديني في هذا الاتجاه إلى تعديل أو تبديل، لأن القرآن يخاطب العقول، ويتجه إلى موضع الداء، ويبين الغاية من الإصلاح، وهي إسعاد الفرد والجماعة، مختاراً في فاتحة الخطاب إما التعبير العام وهو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الوارد في القرآن الكريم (٢٤٠ مرة) والشامل لكل الفئات من المسلمين وغيرهم، وإما الكلمة المفردة وهي ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ الواردة في القرآن (٦٥ مرة)، وإما التعبير الخاص بالمؤمنين الصادقين برسالة القرآن والإسلام، وهي كلمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الواردة في القرآن (٨٩ مرة)، وإما عبارة ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ أو ﴿عِبَادِي﴾ الواردة في القرآن (١٧ مرة).

وكل هذه التعابير تدل على خاصية اللطف الإلهي، وعلى عناية الله بمحبة عباده والحرص على هداية الإنسان أو رشاده، مما يوجب انتباه الإنسان العاقل للخطاب الإلهي، ويلفت النظر إلى ضرورة فهم هذا الخطاب، ووعيه وإدراكه، والمبادرة إلى الامتثال لمضمونه.

وهذه التعبيرات أسمى من كل ما يخاطب به الزعماء المعاصرون شعوبهم مثل قولهم: أيها الشعب، أيها المواطنون، أيها المصريون أو السوريون، أو الليبيون، أو العرب الأحرار، وكلها عبارات تستدعي الاهتمام أو العناية أو الانجذاب للخطاب السياسي العام.

والأمثلة كثيرة في القرآن، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

ومنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦-٧].

ومنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٠-٧١].

ومنها: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

ومن **الناحية الموضوعية** يدعو القرآن إلى الجدال مع الآخرين بالحسنى واللطف والكياسة والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

وقد يكون الخطاب بالتسوية بين المؤمنين وغيرهم، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

ومثل: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤].

وقد يكتفى بآية قرآنية واحدة في مجال الدعوة والإقناع والإيجاز والحوار، فإن **أعظم** آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

وأعدل آية في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

وأخوف آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧-٨].

وأرجى آية في القرآن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣](١).

وقد تعبر آية موجزة عن مدلول عظيم يصْلُح أساساً للحياة الإنسانية العالمية، وإعلان حقوق الإنسان العام وهي: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

تنوع أساليب الخطاب في القرآن

تتعدد الأساليب القرآنية في الخطاب توافقاً مع إعجاز القرآن، واختياراً لتحقيق الغاية، أو تطابقاً مع المقام المناسب بمخاطبة العقول، أو مراعاة للمواهب والاستعدادات، أو فوريةً في توجيه الأمر، أو تدرّجاً في التشريع، أو رعاية لمطالب الروح والجسد، أو جمعاً بين مطالب الدنيا والآخرة جميعاً أو تشديداً أحياناً وتيسيراً ورفعاً للحرج عن الناس أحياناً كثيرة أو لغير ذلك من المقاصد.

أما **التوافق مع الإعجاز** فمثل حكاية طوفان نوح في آية واحدة هي: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ١١/ ٤٤].

أو في آيات قصار، مثل تقرير نهاية الظالمين الوخيمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ٤٤ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ٤٥ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤/ ١٤٩ منشورات الرضا - بيدار، مطبعة أمير.

وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢-٤٧].

ومثل النظم القرآني المعجز الذي أعجز البلغاء وألجم الفصحاء في سورة الرحمن (١-٧٨) وسورة الذاريات، والنجم، والقمر، والواقعة.

وتحقيق الغاية السريعة مثل: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠٥-٢٠٧] ومثل: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٤-٢٦].

ومخاطبة العقول والأفكار، والدعوة لإعمال النظر وطلب الدليل، ومنع التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والركون إلى الجمود، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠]. وآيات المطالبة بإعمال العقول والمدارك والحواس ونهاياتها كثيرة جداً في القرآن الكريم.

ومخاطبة الغرائز النفسية كغريزة التقليد وتوجيهها نحو الأمثلة الطيبة، والتأسي بالأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين، التي ورد فيها آيات، منها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١] ومنها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٩].

وغريزة حب البقاء والاستعلاء في الأرض، حَجَبها القرآن عن الظلم والبغي، ووجَّهها نحو الدفاع عن النفس والدين والعرض والوطن والمال، وقادَها إلى الحق والخير في حياة الخلود والبقاء في عالم الآخرة مثل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢٠].

ومراعاة المواهب والاستعدادات واضح في ترتيب الأوامر والنواهي، بجعل الأوامر درجات، تتدرج من الإيمان إلى الإسلام، إلى الركن أو الفرض، إلى

الواجب، وإلى المندوب المؤكد وغير المؤكد، وكذلك النواهي درجات من نفاق إلى شرك وإلى كفر، وإلى كبيرة أو صغيرة، إلى مكروه تحريماً أو تنزيهاً، ويأتي بعدئذ المباحات لاختيار المكلفين، وكل ذلك للترغيب أو الترهيب.

وقد يكون الأمر على الفور مثل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤] وفريضة العبادات الأربع، وقد يكون على التراخي، مثل أداء الصلوات المفروضة في أوقات متسعة، وجعل وقت الوفاء بالنذر العمر كله، وقضاء رمضان كله أو بعضه على مدى السنة.

وقد يكون هناك تدرج في التشريع، وهو من خصائص الشريعة في العهد النبوي، كتحريم الخمر أو الربا على أربع مراحل.

ويراعى كون هذه الأمة المسلمة أمة وسطاً، فيأتي القرآن أحياناً محققاً مطالب الروح ومطالب الجسد، فلا تغلب على المسلمين المادية والحظوظ الجسدية والشكليات والطقوس كاليهود، وكذلك لا تغلب عليهم الروحانيات المحضة وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى في تعاليمهم، وقد وجّه الله تعالى المسلمين إلى العناية بالدنيا والآخرة معاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧].

ومن سمات الإسلام وخصائصه التيسير ودفع الحرج، كما تقدم لتفعيل منهج الوسطية دون إرهاق ولا تشدد ولا مضايقة، عملاً بقول الله سبحانه في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:

٣/٥]، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٦].

وقد وضع الفقهاء بناء على ما تقدم قواعد عامة ومهمة مثل: «المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المحظورات» ثم فرعوا عليها أحكام فروع كثيرة[١].

واتسم القرآن الكريم بسمو التشريعات وشمولها وتلبيتها لحاجات كل زمان ومكان، لأنه كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة، ومعجزته لكل الناس لا للعرب وحدهم، ولا لجيل دون جيل، بل للأجيال كلها، ولتحقيق مدلول الوسطية في الخطابات التشريعية أو جميع الأحكام الشرعية، سواء ما كان منها متعلقاً بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع أو بالعلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب أو بغيرها مما يغطي متطلبات الحياة الإنسانية كلها.

٦- إقرار النظام وترسيخ مدلول عقاب المتطرفين لتحقيق السلامة الجماعية والاستقرار والسلم والأمان في أنحاء العالم

الشريعة الإسلامية كلها شريعة نظام وانضباط للأمة والمجتمع والدولة والأفراد، لأن سمو الحضارة، وتقدم المدنية، وبناء النهضة، لا يتم بغير نظام، ليتحقق الاستقرار، ويسود السلم والأمان في جميع أنحاء الأرض، ولاجتثاث كل معالم الفوضى والقلق والاضطراب.

ومن أجل هذا ولتحقيق معنى الوسطية في الخطاب وغيره، كان الإسلام ديناً ودولة ومنهج حياة، ولم يتخلف المسلمون إلا حين فصلوا الدولة عن الدين، والآخرة عن الدنيا، وكذلك كان تقدم الأمم والشعوب الأخرى مبنياً على احترام النظام والقانون، أما نجاح الغرب في فصل الدين عن الدولة، فلأن الدين المسيحي ليس فيه شيء من نظام الدنيا، عملاً بقول السيد المسيح عليه

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٢٥٧-٢٦٢، المرجع السابق.

السلام: «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر» وإنما المراد فصل سلطة الكنيسة عن الدولة.

واحترام الأنظمة يتطلب عقاب الجناة، ولا سيما الذين يمارسون ألوان العنف والتطرف والإرهاب، وتكون الدولة في سلطانها الداخلي معذورة في إيقاف أو استئصال هذه الظاهرة السيئة جداً، لأن ارتكاب الجريمة والإخلال بالأمن والسكينة يقضّ راحة المجتمعات، ويسيء إلى قدسية النظام، ويدمّر البنية العامة للجماعات والدول والأفراد.

وهذا هو مفهوم الاستقامة في تشريع القرآن المعبِّر عن ضرورة الالتزام بالشرائع والأحكام واحترامها، وهو الذي كان موجهاً للرمز الأول بين المسلمين، هو النبي ﷺ بخطابه في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١/ ١١٢-١١٣].

٧- دور مؤسسات التربية والثقافة والإعلام والوعظ والإرشاد في خطاب الآخرين

إن القصور الملموس في تنمية مدارك المنهج الوسطي في الخطاب الديني وغيره، وخلو المناهج التربوية والثقافية من تدريس وتفعيل مدلول الوسطية في الإسلام، أدى إلى هذا الجنوح والتطرف الذي نعاني منه اليوم، مما أدى إلى اتهام المسلمين بالإرهاب، وهي تهمة باطلة، لأن الإسلام كله دين الرحمة واليسر والتخفيف، والبعد عن الغلو والتطرف أو الإرهاب، وهو دين الانضباط واحترام الأنظمة، والبعد عن كل ما يقضّ مضاجع الآخرين، أو ينشر الذعر والخوف والاضطراب في أوساطهم.

إننا اليوم بحاجة ماسة إلى تفعيل منهج الوسطية المقرر في صريح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] ومعناه التزام الاعتدال والاتزان والتسامح وتحقيق معنى «الخيرية» الموصوف بها هذه الأمة

الإسلامية في قول الله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

ولا يتم تفعيل منهج الوسطية أو الخيرية إلا بإحداث مراكز للوسطية في كل بلد إسلامي، ووضع مناهج واضحة المعالم في شرح معنى الوسطية وفضائلها وآثارها على الحياة الإنسانية في مختلف المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية، وكذلك في منابر الخطابة والوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس والمناسبات المتنوعة، ووضع ضوابط إلزامية للفتاوى السرية والعلنية، وبيان أنماط الخطاب الديني المعاصر، المناسب منه وغير المناسب مؤقتاً، والعناية بمضامين حقوق الإنسان والمعارف الإنسانية، وإيجاد دورات تثقيفية للأئمة والخطباء والمفتين، وتعزيز قيم المواطنة في كل بلد، وتحديد معاني وضوابط المقاومة أو الجهاد ضد الغاصبين والمحتلين والمتسلطين من الأعداء، وتنمية روح التسامح بين أتباع المذاهب الإسلامية، واستئصال كل عنعنات القبلية والطائفية والمذهبية والدينية. والعناية بمعرفة القيم الإنسانية الخالدة، ليعيش المجتمع والناس في كل مكان بأمان واستقرار، ومحبة ووئام، وتعايش دائم ومبرمج وفعال.

إن تثقيف أبناء الجيل وغرس القيم العليا في نفوس المجتمع، وتوجيه الناس إلى الانضباط بمعايير الشريعة والأخلاق والسلوك والممارسة العامة، يؤدي كل ذلك إلى معرفة سمو المسلم، وسمو كل إنسان، وحقه في حياة آمنة عزيزة كريمة، حتى لا تكون الوسطية مجرد شعار كأكثر الشعارات المعلنة غير المؤصلة ولا المطبقة عملياً.

٨- هل يتغير أسلوب الخطاب الديني في القرآن أو في تبليغ دعوة الإسلام؟

القرآن الكريم كلام الله الخالد، وأسلوبه واضح، وقيمه معروفة، ونداءاته الإنسانية العامة والخاصة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فلا حاجة للمزيد أو المزايدة

على معطيات القرآن الذي لا يقبل أي تعديل أو تبديل فيه، سواء في خطاباته أم في شرائعه ومبادئه وأحكامه.

ولا حاجة لتجديد الخطاب الديني كما يردِّد بعض السطحيين والمغترّين بثقافة الغرب وإعلام المعتدين، فإن خطاب القرآن منذ نزوله وإلى يوم القيامة لا يحتاج إلى تجديد، وإنما الذي يحتاج للتجديد هو نحن بأنفسنا ووعينا، وفهمنا وسلوكنا، ورؤيتنا المتفتحة لمعطيات العصر، وتحقيق الانسجام بينها وبين مستوى القرآن السامي المحتوى، والذي يعد قديمه وجديده سواء.

إن الخطاب الديني يتطلب الحفاظ على الثوابت والأصول، مع تغيير الأسلوب، واختيار الخطاب المناسب لإعلانه، وفهم مدلولات هذا الخطاب القرآني في مختلف أنحائه حسبما تقتضيه ظروف الانفتاح على العصر، ودرء الشبهات، وتفنيد التهم، وتصحيح المفاهيم، وصدّ سيل الحملات المغرضة، وتشويه الحقائق الإسلامية والإنسانية.

وإن مقولة تجديد الخطاب الديني بضوابطه تتطلب أيضاً تجديد الخطاب السياسي العالمي والمحلي، وتبني استراتيجية جديدة في مقاومة التطرف على نحو يعم فيه قيم الخير والحرية والمساواة والعدل والإنصاف، وتنتهي فيه لغة التهديد والوعيد وصيحات الاستكبار الغربي والصهيوني.

إن خطاب القرآن واضح، وهو لا يحتاج إلا إلى تأمل ووعي وإدراك، ومحاولة لتحقيق الانسجام بين أحكامه وتوجيهاته، على منهج الحكمة، وإدراك المقاصد التشريعية، وتحقيق مدى ملاءمتها مع الواقع القائم على شريعة الحق والعدل والمساواة، والحفاظ على حرمة الأوطان، وعزة المسلمين وحقهم في الدفاع عن كرامتهم ووجودهم، ومقاومة كل ألوان الاعتداء عليهم، وعلى ثقافتهم، وأوطانهم، ومقدساتهم وثرواتهم.

وإنما الذي يحتاج إلى تجديد هو أسلوب نشر الدعوة بما يتحقق مع أعراف وثقافات العصر ومتطلباته وأذواقه.

إن تحقيق مدلولات حقوق الأمة المسلمة واجب على كل مفكر مسلم أياً كان موقعه ووجوده، لأن الخطاب الديني في القرآن يركِّز على صون عزة الأمة المسلمة، وحماية حقوقها وكرامتها، والعمل على وحدة المسلمين لمواجهة التحديات وتجاوز الصعاب، وطرد المستعمر أو المحتل الدخيل، وعدم الرضوخ لمحاولات الهيمنة الاستكبارية الغربية أو الصهيونية، وترديد الأغاليط وقلب المفاهيم وتزييف الحقائق، فأمتنا ترفض كل ممارسات الذل والمهانة والاستسلام والتصفية، وتتمسك بكل إباء وشمم بمقدساتها ووجودها وحقوقها المسلوبة.

وإذا لم يدرك الغرب وحلفاؤه في أوربة أو في المفهوم الصهيوني المتجبر والعاتي هذه الأصول والثوابت في ضمير الأمة المسلمة ووجدانها، فلا أمل في اللجوء إلى «الوسطية في الخطاب وغيره»؛ لأن هؤلاء لا يوقنون إلا بعبادة مصالحهم، وممارسة تسلّطهم على الضعفاء، فإن توسطوا وقدّروا قيمة الحوار والاعتراف بحقوق الآخرين على قدم المساواة، فحينئذ ينتعش الأمل، ويعيش العالم كله بسلام وصفاء وأمان.

٩- الغاية من تجديد الخطاب الديني

أغلب المصطلحات المقترنة بالحداثة والمعاصرة والإصلاح والتجديد والعولمة والديمقراطية وغيرها يراد بها تطويع مفاهيم الإسلام وأصوله الكبرى وأحكامه العامة والخاصة، وإخضاعها للمفاهيم الأمريكية والغربية، أي تذويب الإسلام وصهره واحتوائه في مخططاتهم المشبوهة والمدمرة، من خلال تفسير القرآن والسنة.

ليس المراد من التجديد في الإسلام أو الخطاب الديني خاصة هو تغيير الدين بالحذف أو الإضافة أو التأويل الزائغ، وإنما التجديد هو الحفاظ على ثوابت الدين وجوهره وخصائصه ومقوماته، وتفعيل مبادئه وأحكامه بحسب منهجه وأصوله في العهد النبوي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩/١٥]، وفي مجال الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية يمكن مراعاة

مقتضيات التطور والأعراف المتجددة والمصالح المتغيرة، بإعمال العقل الصحيح والنظر والتأمل، والاستنارة بمفاتيح العلم والمعرفة المعاصرة، وفي هدي إدراكات الحواس والاهتداء بالتجارب، والتزام الحقائق الدينية والعلمية، والموائمة بين الحكم الشرعي والواقعية، وفهم النص فهماً عاماً شاملاً لا ضيقاً ولا خاصاً، وتعليل الأحكام بالمصالح، وفقه غايات النص بإصلاح النفس وإصلاح الإنسان، ومراعاة حقوق الغير، وحال الإنسان ومحيطه ومقتضيات التبدلات والتغيرات الصناعية الجديدة وآفاقها المطلوبة، والنظر بمقياس موضوعي للتجديد واستيعاب قيم الحداثة مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات والنساء والأطفال والعاطلين عن العمل، والعجزة والهرمى.. إلخ.

وكذلك الشأن في الخطاب، ليس المقصود من تجديده تجاوز مدلولات النص، وإنما تجديد الأساليب والمناهج والطرق المؤدية للغاية.

وليس التجديد هو نسف الإسلام وإلغاء النصوص أو جعلها في آخر المدار، كما يريد بعض الساسة، مثل أتاتورك وبورقيبة وشاه إيران وأمثالهم من العلمانيين، وكما يريد مفسرو الإسلام الجدد بحسب المفهوم الغربي مثل أركون ونصر أبو زيد وعبد المجيد الشرقاوي وسلمان رشدي، وقريب منهم ممن يحقق أهدافهم، مثل محمود حنفي وعبد الله النعيم، وبعض الصحفيين والوزراء المبهورين بثقافة الغرب، والمبتعدين عن مفاهيم الإسلام الصحيحة وأحكامه المقررة.

نعم إنني أطالب أولاً بالإصلاح السياسي، ليأتي تجديد الخطاب الديني موائماً لمقتضيات الحياة المعاصرة، ولأنه لا إمكانية للإصلاح الديني من دون عملية إصلاح سياسي شامل.

الخاتمة

الوسطية تعني التزام منهج الاعتدال والاتزان والتسامح والخير والانفتاح على الآخرين بروح سامية ووعي جديد وإدراك معاصر ونشاط معتدل، لا أثر فيه للتشدد والغلو، والتعنّت والتكفير، والتعصب، على مختلف المستويات، واعتراف بالآخرين، وأخذ بأسلوب الحوار والإقناع.

ولا تعني الوسطية التخلي عن الثوابت والأصول، والحفاظ على مصالح الأمة وقضاياها العادلة، والدفاع عن وجودها وعزتها وكرامتها.

والوسطية تتطلب مقاومة المحتل والمعتدي الخارجي، وتقمع كل نشاط إرهابي في داخل البلاد الإسلامية والعربية وغيرها.

إن الوسطية في الخطاب الديني وغيره من الشرائع والأحكام تُؤْثر اللجوء إلى تحقيق الفضيلة ومقاومة الرذيلة، واستقرار السلم والأمن الدولي والمحلي، وكان المسلمون في مختلف عهودهم وتاريخهم أمة الوسط والتعايش الديني والودي مع غيرهم في بلادهم، وكذا في الوسط الخارجي، إلا وفقاً لمقتضيات سياسة الدفاع، ومقاومة العدوان والمعتدين.

وقد تعددت أساليب الخطاب الديني في القرآن وبيان غاياته على نحو يحقق المطلوب من أيسر الأنشطة، سواء في مجال الدعوة إلى العقيدة أو الإيمان، أو العبادة أو المعاملة أو الأخلاق أو تطبيق الأحكام والشرائع، والتصورات والآراء، أو احترام القيم العليا العامة.

إن القرآن الكريم يدعونا دائماً إلى التزام العمل من أجل إحقاق الحق، وإقامة العدل، والدعوة إلى تطبيق نظام الشورى أو الديمقراطية الإسلامية، واحترام حقوق الإنسان في الوجود والحرية والمساواة والعيش الكريم.

ومنهج الدعوة والخطاب الديني في القرآن منهج سليم ومنطقي ومقبول في كل زمان ومكان، ولا يحتاج لتجديد أو تعديل، لأن القرآن أو الإسلام دين الرحمة العامة بالعالمين، وإنما الذي يُجَدَّد هو الأخذ بالأساليب المعاصرة، والثقافة

الحديثة، والعلوم والمعارف الجديدة، والأعراف الصحيحة، وهذا في تقديري هو المطلوب في عبارة «تجديد الخطاب الديني».

وما أعظم وأصح وأحكم منهج القرآن في خطاباته المختلفة، الموجهة للعقول والأفكار، والاعتبارات النفسية، والمواهب والاستعدادات البشرية، والتزام منهج اليسر ودفع الحرج، ومراعاة حاجات الروح والجسد، والسمو والفضيلة، والحق والعدل، واحترام الأنظمة العادلة، ومقاومة أفكار الغلو والتطرف والإرهاب التي تؤدي إلى الدمار والخراب، واهتزاز الثقة بالمسلمين، وتشويه سمعة الإسلام الشريفة والنقية والسامية.

ولا بد لتفعيل منهج الوسطية من العناية بها فكراً وفقهاً وممارسة وأملاً، في المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية، وتثقيف الوعاظ والمرشدين والأئمة بالثقافة الصحيحة، والدعوة إلى شرع الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، واللجوء إلى الحوار لا إلى تأجيج نيران الصراع وإثارة الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية، أو الاتهام السريع بالتكفير المؤدي إلى التنفير، أو اللجوء إلى التشدد والتنطع والتبرم بالآخرين، لأن الإسلام هو أول من دعا إلى الاعتراف بالغير، وتركه إذا أصرَّ على عناده وانحرافه، والله يحب المحسنين.